

وصناعة الحياة



د. محمد عبد المعطي









حياة محمد

صلى الله عليه وسلم

وصناعة الحياة

إعداد/ أبو عمر د. محمد عبد المعطي



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد النبي العظيم الصادق الأمين... وبعد....

إن (الحياة) هي ذلك المعنى المرادف للوجود والحركة والفعل والتأثير والتأثر، وهى في نفس الوقت ذلك المضاد للموت والسكون والخمود...

وبهذا المعنى (الواسع) تشترك كثير من المخلوقات في صفة الحياة المكتسبة والتي يعقبها ولا شك موتٌ وسكون.. وسبحان الحي الذي لا يموت.. الذي منه كل حياةٍ والإنس والجن يموتون...

فالنبات حين يكون في أرضه يتغذى منها ويكبر ويترعرع فهو حي.. والحيوان حين يجري ويأكل ويشرب ويتناسل وغير ذلك فهو أيضا حي.. ولربما يُطلق معنى الحياة مجازيا على الأرض المنتجة والجماد الذي يتفاعل ويتحرك كالنار حين اشتعالها والمشاعر المتفاعلة المتقدة... وغيرها مما يضاد السكون والهمود حقيقةً ومجازا...

وبهذا المعنى (الواسع) للحياة يشترك البشر مع الحيوان والنبات وغيره... حياةً لا تميز بينهم.. يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتحركون...

ولكنَّ الحياة بمعناها الأرقى و(الخاص) هي حياة (المؤمنين) الذين اتصلوا بخالقهم سبحانه وسما وجدانهم وصحت عقولهم على نور معرفة الله تعالى واليقين به... وهى حياة تخلق في الوجود وجودا آخر من النور والبناء والغرس والنماء والحضارة والأخلاق الرفيعة والآداب السامية...

هذه الحياة هي التي نعنيها حين نقول إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد علَّم الدنيا من خلال حياته الشريفة كيف تكون الحياة الحقيقة التي بها يرتقي الإنسان لتكريم الله فيه، والتي بها يختلف عن البهائم والحيوانات....

فإن الإنسان إذا لم يستعمل سمعه وبصره وقلبه وعقله ووجدانه ومشاعره في معرفة الحق والارتقاء بأخلاقه وأدبه إلى السماوية؛ فهو كالأنعام يشترك معهم في الحياة البهيمية التي



لا تساوي في حقيقة الحياة شيئا تنتهي حين تفارق الروح الجسد وينتهي ذكر صاحبها ولربما يخلد ذكره في المجرمين الذين أفسدوا في البلاد والعباد....

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحياته التي تمثل التنفيذ الأشمل والأكمل للتعاليم الربانية والمنهج السماوي على الأرض.. إن رسول الله عليه السلام وحياته هو النموذج الأمثل للحياة التي قال فيها ربنا سبحانه: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)} [النحل: ٩٧].

(أخبر تعالى أنَّ ما عنده مِنْ نعيمِ الجنَّة، ومواهب الآخرة خَيْرٌ لمن اتقى وعَلِمَ واهتدى، ثم بيَّن سبحانه/ الفرق بين حال الدنيا، وحال الآخرة، بأنَّ هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عَنْها، ومِنَ الآخرة باقية دائمة، وصَبَرُوا معناه عن الشهوات وعلى مكاره الطاعاتِ، وهذه إشارةٌ إلى الصبر عن شَهْوَةِ كَسْب المال بالوجوهِ المكْرُوهة.

واختلف النَّاسُ في معنى «الحياة الطَّيِّبة» فقال ابن عباس: هو الرزق الحلال، وقال الحسن وعلي بن أبي طالب: هي القناعة.

قال الثعالبي رحمة الله عليه: والذي أقولُ به أنَّ طِيبَ الحياةِ اللازمَ للصالحين إِنما هو بنَشَاطِ نفوسهم ونُبْلها وقُوَّةَ رَجَائِهم، والرَّجَاءُ للنَّفْس أمرٌ مُلِذٌّ، فبهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عَنْهم، فإِن انْضَافَ إِلى هذا مَالٌ حلالٌ، وصِحَّةٌ أو قناعةٌ، فذلك الكمال.. وقوله سبحانه: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ الآية: وعْدٌ بنعيمِ الجنَّة. انتهى) [1].

وعلى النقيض تماما من اتبع هواه وترك هداه وعاش كالبهائم... كما قال الله تعالى:

"فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤)" [سورة طه]

[1] تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٤٠)





ثم أعلمهم سُبْحانه: أن من اتّبع هُدَاه فلا يضِلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وأنَّ من أعرض عن ذِكْر الله، وكفر به فَإِنَّ له معيشةً ضَنْكاً، و«الضَّنْك»: النكدُ الشاقّ من العيش والمنازل، ونحو ذلك.

وهل هذه المعيشةُ الضنك تكون في الدنيا، أو في البَرْزَخ، أو في الآخرة؟ فيها أقوال. ويُحْتَمَلُ في الجميع، قال القرطبي: قال أبو سعيد الخُدْرِيّ، وابن مسعودٍ: ضَنْكاً: عذاب القبر»..)[٢].

وهكذا نتفهم معنى الحياة الحقيقي ونحاول أن ندرك ادراكا تاما ثم نؤمن بأن الحياة التي أرادها الله سبحانه بمنته وفضله لنا إنما توضحها وترسم معالمها وصراطها حياة محمد صلى الله عليه وسلم.... فإن كان من خير فمن الله وحده، وإن كان من شر فمني ومن الشيطان ونسأل الله تعالى الهداية والكفاية والوقاية... ولله الحمد أولا وآخراً!!!

اللهم صلي وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً....

وكتبه / الفقير إلى عفو ربه أبو عمر د. محمد عبد المعطي

---

[٢] المصدر نفسه (٤/ ٧١)



القراءة الصحيحة لحياة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وهل نحن مقصرون؟

إن القراءة عن محمد صلى الله عليه وسلم متعةٌ ما بعدها متعة؛ وإني أتعجب كثيرا من هذا الشغف الذي يداني الإدمان لتتبعي عبير سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم في كل ما كُتب وما يُكتَب عنها؛ حتى لكأني أحسُّ أن الحديث عنه يفتح على الكلمات والأفكار بركاتٍ لا تكاد تتشابه فيما بين قلمٍ وقلمٍ اللهم إلا في أن موضوعها وبطلها هو محمد صلى الله عليه وسلم..

آلافٌ من كتب السيرة ومن كتابها ما بين عربي وغيره.. مسلما كان أو غيره.. محبا كان أو غيره كُتبت عن رجلٍ واحدٍ.. ترصد كل لحظات حياته.. تسجل وتحلل.. تؤيد وربما تعارض.. ولكن الذي اتفقت فيه جميعا أن مثير كل هذه الأقلام والتأمل والجدل هو بالطبع رجلٌ عظيم؛ إن لم يكن الرجل الأعظم على الإطلاق...

لقد أعجب بمحمد صلى الله عليه وسلم الكثيرون حتى ممن على غير دينه فنطق المنصفون بالحق وخُذل الحاقدون فتواروا خلف حقدهم يبثونه ترهاتٍ لا تستحق المداد التي كتبت به فضلا عن قراءتها أو تفنيدها..

لقد أعجب به من يرون العظمة في أبهى صورها تتحقق في نجاح رجلٍ قام وحده يدعو لدينٍ يخالف به العرب والعجم ثم تنتشر تعاليمه ودعوته انتشار الشمس في الآفاق.. وإذا كان المنصفون من الغرب والشرق قد عرفوا مقدار محمد صلى الله عليه وسلم – حتى ولو كانت مقاييسهم دنيوية بحتة مبنية على مقاييس النجاح وتحقق الأهداف والتأثير- فنحن أولى بأن نعرف محمداً صلى الله عليه وسلم معرفة من يريد النجاة والنور حين أغرقته الظلمة وأيقن بالهلاك...

وإن القليل من قراءة ما عَرف به المنصفون محمداً صلى الله عليه وسلم يجعلنا نقف خجلين ونحن في غياهب جهالتنا لمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأعماق دعوته ومضامينها السامية.... [٣]

يقول المفكر وعالم الطبيعة الكاتب اليهودي مايكل هارت في كتابه [أعظم مائة شخصية تأثيرا في التاريخ]:

[إن اختياري محمدا ليكون على رأس قائمة أكثر الشخصيات تأثيرا في التاريخ ربما يدهش البعض، وربما يحير آخرين.. ولكنه حقيقةً كان الرجل الوحيد في الدنيا الذي نجح نجاحا باهرا على كلا الصعيدين الدنيوي والديني...]..

ثم إن يدلل على ذلك بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان الوحيد من بين العظماء الذي لم تتح له بيئته ولا الثقافات من حوله ولا عهده أي مساعدةٍ ليكون له ربع معشار هذا النجاح وهذه العظمة وهذا الفتح العظيم الذي يضع قدما في الهند والصين والأخرى في أقصى الغرب، وقد نجح في فتح ثلاثة أضعاف أمريكا في أقل من قرن من الزمان.. كما أنه لا يدانيه أي عظيم آخر في الاقتداء بتعاليمه التي لقنها - كاملةً؛ وفي كل مناحي الحياة والدين- أتباعا مخلصين له على مر القرون إلى قيام الساعة... هذا محمد أعظم العظماء ولا مزايد!!!

وقد صدق الأديب البارع (لامارتين) الفرنسى الشهير إذ يقول: [إذا كانت عظمة ونبل المقاصد، وضآلة الوسائل، والنجاحات المذهلة هي العناصر الثلاثة للعبقرية البشرية، فأي بشر عظيم يجرأ أن يقارن نفسه بمحمد - صلى الله عليه وسلم].

---

[٣] كنت أشاهد التلفاز ورُوعتُ كثيرا حين ألقى المذيع سؤالا على كثير من الناس و لم يلق إجابةً صحيحة من معظمهم والسؤال كان: كم كانت دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ وللعجب فإن من بُعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا الجواب.. ولعل أكثرهم يحفظون أسماء لاعبي الكرة والمغنين والممثلين وتفاصيل حياتهم عن ظهر قلب .. فأى عار نحن فيه.. وأي ضياع لكل من سيقف بين يدى الملكين في القبر ويسألانه: ومن النبي الذي بعث فيك؟

وقد قال (جونسون) في كتابه "أديان الشرق ": " إن تعليمات محمد ومبادئه عن الإنسانية والمثل العليا في الدين، وتواضعه وبساطته في حياته تجعله بطلا وعظيما لا في العالم القديم فحسب، بل تجعله من أبطال العالم الحديث وزعمائه".

أقول: وإننا نعتقد أن محمدا – صلى الله عليه وسلم- قد قام بما لم يقم به أحد ممن سبقه من الرسل، ولن يستطيع أي زعيم أو بطل أو عظيم أن يفعل ما فعله محمد. لقد ترك محمد من المبادئ المثالية العليا والنظم الإنسانية ما لم يتركه أحد قبله. لقد ترك مبادئ روحية خالدة، ومثلا خلقية سامية، ونظما تشريعية لا يستطيع أحد الإتيان بمثلها.. هي من عند الله كاملة، تصلح لكل زمان وكل مكان، في العالم أجمع، ولكل البشر إلى يوم الدين.. فهو زعيم الزعماء حقا، وبطل الأبطال غير منازع، وهو المثل الأسمى للعظمة الإنسانية.

ولقد تعجب كثيرا حين تسمع كلمات أحد أهم كتّاب وأديبي ومؤرخي الغرب الإنجليزي (توماس كارلايل) يتحدث بصدقٍ عن محمد صلى الله عليه وسلم... وكارلايل أحد كبار كتاب الانجليز، شاعري النزعة والفطرة، متحرر من الرياء والخبث، يتتبع البطولة، فيكتب عنها ويمتدحها، ويحبب الناس في السمو بأنفسهم إلى منازل الأبطال، أو على الأقل إلى التشبه بهم، وقد أثار كتابه: "الأبطال" إعجابًا في ميدان الفكر العالمي، وترجم إلى كل اللغات الحية، وحينما ترجمه المرحوم محمد السباعي إلى اللغة العربية، أثار الكثير من الإعجاب، وفي هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، نقتطف منه ما يلي حيث يقول:

" من العار أن يصغى أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين. إن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا لم يكن على حق.

لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي، ظلت سراجًا منيرًا أربعة عشر قرنًا من الزمان، لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين، وماتت، أكذوبة كاذبة،

أو خديعة مخادع؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفًا وعبثًا، وكان الأجدر بها ألا توجد.

هل رأيتهم رجلاً كاذبًا، يستطيع أن يخلق دينًا، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب، لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبني إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبني بيتًا دعائمه هذه القرون العديدة، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمدًا رجلا كاذبًا متصنعًا، متذرعًا بالحيل والوسائل لغايةٍ أو مطمع... وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق. وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أحب محمدًا، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين، أكاسرة العجم، وقياصرة الروم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة. والحياة الآخرة.

ويزعم المتعصبون أن محمدًا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان.. كلا والله.

لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس، المملوء رحمة وبرًا وحنانًا، وخيرًا ونورًا وحكمة، أفكارٌ غير الطمع الدنيوي، وأهدافٌ ساميةٌ غير طلب الجاه والسلطان.

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وآثاره، حمقٌ وسخافةٌ وهوسٌ إن رأينا رأيهم. أية فائدة لرجل على هذه الصورة في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان.

لم يكن كغيره، يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعًا للاعتبارات الباطلة، ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل.

لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة. وبخالق الكون والكائنات، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه.

لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثًا من قلب الطبيعة ذاتها.. ولهذا وجدنا الآذان إليه مصغية، والقلوب لما يقول واعية.

لقد كان زاهدًا متقشفًا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه، وسائر أموره وأحواله، فكان طعامه عادة الخبز والماء، وكثيرًا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار.

فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمدٌ رجل متقشف، خشن الملبس والمأكل، مجتهد في الله. دائب في نشر دين الله، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبةٍ أو دولةٍ أو سلطان.

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقي من العرب الغلاظ احترامًا وإجلالا وإكبارًا، ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته، ثلاثًا وعشرين حجة وهم ملتفون حوله، يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه.. لقد كان في العرب جفاءٌ وغلظةٌ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلاً، وأيم الله.

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته، ولما انقادوا لمشيئته.

وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته، كما استطاع هذا النبي في ثوبه المرقع".

هكذا تكون العظمة.

هكذا تكون البطولة.

هكذا تكون العبقرية.

ثم يتحدث الرجل عن عظمة محمد واخلاصه:

" لقد كان محمد مصلحا عظيما، ولم يكن دجالا، أو مريضا بالأعصاب أو الصرع. ولكنه كان رجلا كريم الخلق قوى الإرادة والعزيمة، لم يفكر في منفعته الشخصية، ولكنه كان يفكر في غيره من الفقراء. ولم يكن مستبداً في أحكامه، بل كان مثالا للعدالة في

الحكم، ينير الطريق لغيره، ويرشد الضال، وينشد المحبة بين الناس ولم يكن محبا لنفسه، بل كان محبا لغيره، أمينا في أداء رسالته. كان محمد مثلا للإخلاص، والوقوف بجانب الحق والعدالة في كل ما يفعل، وكل ما يقول، وكل ما يفكر فيه. كان دائم التفكير، محبا للصمت لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى الكلام وإذا تكلم كان حكيماً في أقواله، سديدا في أرائه، مخلصاً الإخلاص كله، يلقي النور على كل ما يعرض عليه من الأمور.

كان هناك كثيرون يجوبون الصحراء، من الرعاة الفقراء ، لا يفكر فيهم أحد، ولا ينتبه إليهم إنسان واستمروا هكذا منذ كانت الخليقة، لم تتغير حالهم. ولكن أرسل إليهم نبي من الأبطال فأخذوا كلمته، وصدقوا دعوته. وبعد أن كان العالم لا يعرف عنهم شيئاً صاروا معرفين للعالم. وبعد قرن واحد من هذه البعثة امتدت البلاد التي سيطر عليها العرب حتى وصلت إلى غرناطة، وإلى دلهى. وقد ظل العرب ينشرون النور في الأمكنة المظلمة، ويضربون المثل العالية في الشجاعة والإقدام والعظمة، والوفاء، والمجد والنبل في أقطار كثيرة من بلاد العلام في سنوات طويلة". انتهى كلام كارلايل.

وأقول: هكذا يرى المنصفون العقلاء محمداً صلى الله عليه وسلم؛ وقد بلغ الناهون منهم عمقا من فهم عظمته وغورا بعيدا من فهم طبيعة دعوته يجعلنا نقف خجلين من جهلنا بنبينا عليه السلام، وتبدد أرواحنا شرقا وغربا نبحث عن القدوة... والرسول محمد بكل عظمته يعلم الدنيا أجمعها كيف تكون العظمة والنبل والمروءة والجمال قدوة يقتدي بها الشرفاء...

يقول المؤرخ التركى (مراد إن):إن (أوغست كونت) أحد الفلاسفة الفرنسيين كان يطعن في الإسلام وبنيه ،متأثرا بروح التعصب الديني ،وحدث أن زار الأندلس، ووقف أمام آثار فيها، ثم انتقل إلى روما، وعكف على بعض الكتب التي تعرِّف بالإسلام ،والمسلمين، ليقرأها. وكان في مقدمة ما لفت نظره أمِّيَّة الرسول ،وعدم معرفته القراءة

والكتابة. وكثيرا ما كان يتساءل:كيف يتاح لمن عاش في الصحارى ،ولم يدرس أو يقرأ ،أو يكتب ،إن ينشىء مثل الشريعة الإسلامية ،التي لا تماثلها شريعة في أحكامها وفلسفتها؟ وقد اجتمع (بالبابابيوس) التاسع، وسأله عن رأيه ،وقال له:أصحيح أن محمدا كان أميا كما يدعى المسلمون ،وتذكر كتب التاريخ ،لا يعرف القراءة والكتابة؟

فأجابه: نعم إنه كان أميا.

فعند ذلك لطم (أوغست كونت)وجهه، قال:"واخجلاه منك يا محمد !إنني ظلمتك فالويل لك يا أوغست... إلا إنني أقر وأعترف، بأن محمدا أصغر من إله؛ ولكنه على كل حال أسمى من البشر ،نعم إنه من البشر ولكنه أسمي وأكمل من البشر".

وأقول أن ما قام به المصطفى من أعمال عظيمة لم يقم بها أحد قبله من الأنبياء والرسل. مع أميته وعدم معرفته للقراءة والكتابة أكبر دليل على عظمته.

والحقيقة أننا مقصرون للغاية في معرفة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأحواله وحقيقة تعاليمه الشريفة.. إننا مقصرون لأننا ابتعدنا كثيرا عن ديننا الحنيف وكلما ابتعدنا عن ربنا كلما كان محمد النبى العظيم بعيد عنا بسيرته وشمائله وتعاليمه... فالذين يقتربون من محمد أكثر هم في الحقيقة يقتربون من الإسلام في أصفى صوره ومثله وقيمه السامية..



واخجلاه منك يا محمد!!!

وكيف تطلب العزة لقومٍ لا يعرفون عن محمدهم شيئا وإن عرفوه فهو كالظل البعيد لكليل البصر لا يراه إلا خيالات تروح وتأتي.. بينما يرون في كثير من السفهاء القدوة والمثل؛ فهم يعرفون كل التفاصيل عن حيوات الفارغين من لاعبي الكرة والمشهورين من رؤوس الضلال والفتنة بينا لا يعرفون عن محمد عليه السلام سوى النذر اليسير.. كلا والله لا يأتينا العز إلا بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم حق المعرفة وحبه واتّباعه تمام الاتباع...

فعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قال (صلى الله عليه وسلم): " وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ " وَفي رواية أَنَسٍ زاد: " وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ". رواه البخاري ومسلم في صحيحهما...

[قال أبو الزناد: هذا من جوامع الكلم الذى أوتيه (صلى الله عليه وسلم)، لأنه قد جمع في هذه الألفاظ اليسيرة معانى كثيرة، لأن أقسام المحبة ثلاثة: محبة إجلال وعظمة كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة استحسان ومشاكلة كمحبة سائر الناس، فحصر صنوف المحبة. ومعنى الحديث، والله أعلم: أن من استكمل الإيمان علم أن حق الرسول وفضله آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن بالرسول استنقذ الله أُمته من النار وهداهم من الضلال، فالمراد بهذا الحديث بذل النفس دونه (صلى الله عليه وسلم)، وقال الكسائى في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ٦٤] أى حسبك الله ناصرًا وكافيًا، وحسبك من اتبعك من المؤمنين ببذل أنفسهم دونك...)[٤]..

(فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يُقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله سبحانه وتعالى.

٤ شرح صحيح البخارى لأبي الحسن بن بطال (١/ ٦٦)



فمحبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصول الإيمان وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدم عليها شيء من الأمور المحبوبة طبعا من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك... قال – عز وجل -: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ} (التوبة: ٢٤). ولما قال عمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال: " لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك " فقال عمر: والله أنت الآن أحب إلي من نفسي، قال: " الآن يا عمر ".

والمحبة الصحيحةُ تقتضي المتابعةَ والموافقةَ في حبِّ المحبوبات وبغضِ المكروهات[٥]،

وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} (آل عمران: ٣١) قال الحسن: قال أصحابُ النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم -: يا رسول الله، إنّا نُحبُّ ربنا حبّاً شديداً، فأحبَّ الله أنْ يجعل لحبه علماً، فأنزل الله هذه الآية.

وفي " الصحيحين " عن النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم –، قال: " ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهُما، وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، وأنْ يكره أنْ يَرجِعَ إلى الكُفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يُلقى في النار"...

---

٥ قال الشيخ القرطبي ، رحمه الله : وظاهرُ هذا القول أنّه صرفَ محبَّةَ النبيِّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى اعتقادِ تعظيمِهِ وإجلاله ، ولا شكَّ في كُفْرِ مَنْ لا يعتقدُ ذلك.

غيرَ أنَّ تنزيلَ هذا الحديثِ على ذلك المعنى غيرُ صحيح ؛ لأنَّ اعتقادَ الأعظَمِيَّةِ ليس بالمحبَّةِ ، ولا الأحبِّيَّة ، ولا مستَلْزِمًا لها ؛ إذْ قد يجدُ الإنسانُ من نفسه إعظامَ أمرٍ أو شخصٍ ، ولا يجدُ محبَّته ، ، ولأنَّ عمر بن الخَطَّاب ــ رضى الله عنه ــ لَمَّا سمع قولَ النبيِّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ نَفْسِي ، فَقَالَ : وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ ، فَقَالَ : وَمِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ : الْآنَ يَا عُمَرُ .

وهذا كلُّه تصريحٌ بأنَّ هذه المحبَّةَ ليستْ باعتقاد تعظيم ، بل ميلٌ إلى المعتقَدِ تعظيمُهُ وتعلُّقُ القلبِ به ، فتأمَّلْ هذا الفرق ؛ فإنَّه صحيحٌ ، ومع ذلك فقد خَفِيَ على كثيرٍ من الناس.

وعلى هذا : فمعنى الحديث ، والله أعلم : أنَّ مَنْ لم يجدْ مِنْ نفسه ذلك الميلَ ، وأرجحيَّتَهُ للنبيِّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، لم يَكْمُلْ إيمانُهُ.]ا.ه. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٤١)



وسئل بعضهم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال. فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق: أنه إذا تعارض طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوامره وداع آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإن قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي: كان دليلا على صحة محبته للرسول وتقديمها على كل شيء، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من هذه الأشياء المحبوبة طبعا: دل ذلك على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه. وكذلك القول في تعارض محبة الله ومحبة داعي الهوى والنفس، فإن محبة الرسول تبع لمحبة مرسله عز وجل. هذا كله في امتثال الواجبات وترك المحرمات. فإن تعارض داعي النفس ومندوبات الشريعة، فإن بلغت المحبة على تقديم المندوبات على دواعي النفس كان ذلك علامة كمال الإيمان وبلوغه إلى درجة المقربين والمحبوبين المتقربين بالنوافل بعد الفرائض، وإن لم تبلغ هذه المحبة إلى الدرجة فهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين الذين كملت محبتهم و لم يزيدوا عليها..). [٦]

---

٦ راجع جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل (٣/ ١١٤٩)، فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٨).



وما زال السؤال: **لماذا تقرأ وندرس حياة محمد صلى الله عليه وسلم؟**

وإننا إذا تتبعنا حياة محمد صلى الله عليه وسلم كما نعرفها من آلاف الكتب التي حوت سيرته وجدنا حياته مثلا ونموذجا ونبراسا يقتدى به في كل لحظاتها الزاكية، ولو اتيح لنا أن نراود غيضا من فيض ليجلي لنا مقدار عظمة حياة محمد صلى الله عليه وسلم لكلت أقلامنا ولنا – بإذن الله تعالى – مخرجٌ في التلميح والإحالة والإيجاز، فنقول:.... ثم لا نترك الكلام مرسلا بل نرسم ما يضيء الصورة كاملةً من السيرة والتاريخ والواقع الذي يمثل الحقيقة أمام عيني كل منصف...

- لقد انبنت حياة محمد صلى الله عليه وسلم على ثلاثة محاورٍ رئيسيةٍ يجب أن يتم دراسة السيرة النبوية؛ بل ويجب أن تُفهم تعاليم الدين الإسلامي كافةً في ضوئها كما يجب أن يُدرس كتاب الله تعالى من خلالها:

أولها: علاقة الإنسان بخالقه وربه ومولاه سبحانه، وهى علاقة يجب أن يتحرر الإنسان فيها من كل ما يحول دون تكريمه بعز العبودية لله الواحد الأحد العظيم المتوحد المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله.. ومن ثم القيام بحق عبادة الله سبحانه على وفق ما يرضى على لسان رسله وفي كتبه.. وهى كما يتضح علاقة تركز على أن العبودية لله الذي له كل كمال وجمال هي في أساسها تحرر من كل شركٍ ينحط بالبشرية بعد تكريمها بالتوحيد. {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) } [يس: ٦١، ٦٢].. {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات: ٥٦ – ٥٨]..

ثانيها: علاقة الإنسان بنفسه.. وهى علاقة تتمثل فيها كل الطرق المشروعة في تنقية وتهذيب وتربية النفس على كل جميل من الصفات والسجايا وابعادها عن سيء الفكر والأخلاق {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس: ٧ – ١٠].



ثالثها: علاقة الإنسان بالناس حوله والمخلوقات والحياة بأجمعها... وهى علاقة ينظمها منهج رباني متكامل لا يتطرق إليه الخلل أبدا صالحٌ لكل زمان ومكان وتحت كل الظروف مبنى في أصوله على العلم المحيط والحكمة البليغة والتوازن الشامل ودقيق الاتزان... {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)} [الرحمن: ٧ - ٩].

- ثم بعد هذه الأصول التي رسمت حياة ورسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم تجئ حياة المصطفى لتكون النموذج الأرقى والأكمل لتعاليم هذا الدين الشاملة المتكاملة العظيمة النقية وتتضح معالم عظمته - صلى الله عليه وسلم – في كل لحظة من لحظات حياته وهو يعلم الدنيا كل المعاني اللازمة لبناء الهيكل النهائي لهذا الدين الحق..
- ولعلني أستطيع أن أقترب من بعض معالم هذه المعاني التي ترسخها حياة محمد عليه الصلاة والسلام.

١. إن حياة محمد صلى الله عليه وسلم هي المثل الكامل للأمل الذي لا يفتُّ به كثرة الظلم والظلمات؛ بل والإيمان بالنور حتى في أحلك اللحظات ظلمةً وشرا وفسادا.

٢. حياة محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه هي النموذج الأعلى للنماء والغرس والبناء والجمال والخير، ومحاربة أضداد هذه المعاني وتقويض أبنيتها في دنيا الناس والواقع[7]، وهو ما جعل الإسلام من أوسع وأسرع الأديان انتشارا، وكذا من أعظمها حضارة على مر التاريخ.

---

٧ ولعل التاريخ يذكر لنا أن من حرصه عليه السلام على غرس معاني الخير والجمال نراه يغير أسماء بعض أصحابه لأنه يجدها تشير إلى ضد ما يدعو إليه ولو لفظيا فقط...فقد جاء في زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٠٦):
ثَبَتَ عَنْهُ صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ («غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ، وَقَالَ: أَنْتِ جَمِيلَةٌ») وَكَانَ اسْمُ جويرية بَرَّةً، فَغَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِ جويرية. وَقَالَتْ زينب بنت أم سلمة: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ، فَقَالَ: («لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ») .

٣. حياة محمد صلى الله عليه وسلم هي القصص الأرقى للصبر والإيجابية والمرونة والدأب في نشر الحق، ورجاله الذين رباهم على عينه خير مثال.

٤. حياة محمد صلى الله عليه وسلم خير ممثلٍ لتحمل الواجب والمسؤولية والرسالة والإخلاص الدائم لفكرة تخليص البشرية من عبودية الوهم والخرافة وعبادة غير الله حتى في أشد اللحظات قسوة في حياة الانسان.

٥. حياة محمد صلى الله عليه وسلم هي النموذج المثالي للحياة المتوازنة بين العقل والعاطفة، الرحمة والواجب، المسؤولية والتكاليف، لتجعل الرجل مثالا ربانيا كاملا للبطولة والعطاء المستمر على مر الأزمان والعصور.

إذاً فحياة محمد صلى الله عليه وسلم هي المثل الأعلى للتوحيد والأمل، والبناء، والخير، والصبر، والإيجابية، والمرونة، والدأب في نشر الحق، والحرية، والحضارة، والأمانة، والمسؤولية، والتوازن...

(«وَغَيَّرَ اسْمَ أَصْرَمَ بِزُرْعَةَ») ،) «وَغَيَّرَ اسْمَ أَبِي الْحَكَمِ بِأَبِي شُرَيْحٍ») ، («وَغَيَّرَ اسْمَ حَزْنٍ جَدِّ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَجَعَلَهُ سَهْلًا، فَأَبَى وَقَالَ: " السَّهْلُ يُوطَأُ وَيُمْتَهَنُ») .

قَالَ أبو داود: («وَغَيَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمَ الْعَاصِ وَعَزِيزٍ وَعَتَلَةَ وَشَيْطَانٍ وَالْحَكَمِ وَغُرَابٍ وَحُبَابٍ وَشِهَابٍ، فَسَمَّاهُ هِشَامًا، وَسَمَّى حَرْبًا سَلْمًا، وَسَمَّى الْمُضْطَجِعَ الْمُنْبَعِثَ وَأَرْضًا تُسَمَّى عَفْرَةً سَمَّاهَا خَضِرَةً، وَشَعْبَ الضَّلَالَةِ سَمَّاهُ شَعْبَ الْهُدَى، وَبَنُو الزِّنْيَةِ سَمَّاهُمْ بَنِي الرِّشْدَةِ، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ») .

التوحيد أولا!! أعظم ما في حياة محمد صلى الله عليه وسلم

فقد كانت أول أولويات حياته الشريفة – صلى الله عليه وسلم – تحرير البشرية من عبادة الوهم والخرافة والتدين المنحط الذي يذري بالبشرية والسمو بها إلى هبادة الله سبحانه وحده وتوحيده لا سواه وهو أكبر تكريم للإنسانية يعرضه محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله على البشرية الحائرة.

يقول العلامة الداعية أبي الحسن الندوي: تحت عنوان/ الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه:

[وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على رفقه ولين كنفه وقوّة احتماله وتغاضيه عن سقطات الناس وزلّاتهم- على حدّ لا يتصوّر فوقه- شديد الحفاظ على أصالة لدين، شديد الغيرة على روحه وتعاليمه وعلى عقيدة التوحيد، شديد الحذر مما يعرّض أمّته لخطر التورّط في الأوهام والمغالاة، وتقديس الأشخاص، والعودة إلى الجاهليّة، لا تأخذه في ذلك هوادة، ولا تمنعه من الإنكار عليه مصالح قياديّة أو اعتبارات سياسيّة، وكان في ذلك يختلف عن قادة الجماعات والزعماء السياسيين اختلافا واضحا.

ومن أوضح أمثلته ما وقع عند وفاة ابنه سيّدنا إبراهيم، فقد كسفت الشمس يوم موته، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنّ الشّمس والقمر آيتان من آيات الله- عزّ وجلّ- لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبّروا، وصلّوا وتصدّقوا» «متفق عليه».

ولو كان مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبة الحزينة العاطفيّة أيّ داع من الدعاة أو زعيم من الزعماء، أو قائد دعوة وحركة وجماعة كان أقلّ مواقفه من هذا التعليق أو التفسير للحادث السكوت، لأنّه كان في صالح دعوته وحركته، ولأنّه يضفي على شخصه وأسرته ما يستطيع أن يستعين به في بسط نفوذه على قلوب النّاس وعقولهم، وتقوية ثقتهم به، وإعجابهم له، وذلك شيء يتمناه قادة الشعوب والجماعات،

ومنشئو الدّول والحكومات، ويعملون له ألف حيلة، وقد هيّأ الله له ذلك من طريق الغيب، فلا عليه إن سكت.

ولكنّه صلى الله عليه وسلم لم يحتمل سماع هذا الكلام، ولم يسكت عليه لدقيقة، بل بادر إلى إزالة هذا الوهم الذي يجرّ إلى إفساد العقيدة، وربط الحوادث الكونيّة، وسنن الله تعالى في خلقه بما يقع لأفراد البشر، ولو كانوا من الأنبياء وأولادهم وأفراد أسرهم من ولادة وموت وصحّة ومرض، وذلك مدخل قديم، دخل منه الشّرك وتقديس العباد في الأمم السابقة، فنفى هذا الأسلوب من التفكير الجاهليّ، وأوضح الحقيقة، وشرع لذلك صلاة مخصوصة- هي صلاة الخسوف- لتوثيق الصلة بالله تعالى وعبادته واقتلاع هذه الجرثومة الجاهليّة من النفوس والعقول.

وكذلك لم يسعه السكوت حين قال رجل: ما شاء الله وشئت، فقال صلى الله عليه وسلم: «أجعلتني لله ندّا»، وقال رجل- وهو يخطب-: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى»، فقال: «بئس خطيب القوم أنت» «أخرجه مسلم وغيره».

وفي هذه المواقف يتجلّى «الموقف النبويّ» وما يمتاز به الأنبياء عن القادة والزعماء وعظماء البشر، من تجرّد عن الأنانيّة، واستغلال الحوادث وضعف العقول في صالحهم، والسماح للمدح والإطراء ، ولو تخطّى الحدود، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء في ذلك والأسوة الكاملة، وقد قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله» «أخرجه البخاري وغيره»][٨].

---

٨ السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص: ٥٨٩)، وقد جاء في السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص: ٥٥٥) تحت عنوان:الفرق بين نبيّ مرسل وزعيم سياسيّ:

لو كان مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبة الحزينة أيّ داع من الدعاة، أو زعيم من الزعماء، أو قائد دعوة أو حركة أو جماعة، لسكت على هذا الكلام- إذ لم يوفّق إلى نفيه- ظنّا منه أنّ ذلك الكلام إنّما هو في صالح دعوته وحركته، وظنّ أنّه لم يسترع الانتباه إلى هذه الناحية، بل إنّ الناس بأنفسهم فكّروا في ذلك، وقالوا: إنّ الشمس إنما انكسفت لوفاة ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا فهو ليس مكلّفا بنفي هذا التفكير.

وهى نقطةٌ رائعةٌ في حياة الرجل الذي وهب حياته لخدمة مبدأ التوحيد الذي هو في الأساس تحرير للعباد من عبادهم أمثالهم ورفعهم عن دنس تقديس البشر والحيوان والنجم والحجر إلى عبادة الله رب العالمين سبحانه....

[فهو الإله المستحق للعبادة، الذي لا يستحقها إلّا هو، وهي كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلّا هو تعالى.

وقد أشار لذلك تقديم المفعول(إياك) في قولنا كل يوم مراتٍ ومرات نقرأ كلام ربنا سبحانه " إياك نعبد وإياك نستعين"، فإن فيه تنبيها على ما يجب للعبد من تخصيصه ربّه بالعبادة، وإسلامه وجهه لله وحده، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي صلى الله عليه وسلّم عليهم، فقد كانوا متفرِقين في عبادتهم، متشاكسين في وجهتهم: منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار... إلى غير ذلك، كما بينه القرآن الكريم....

وكما بيَّنه حديث أبي واقد الليثيّ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها «ذات أنواط» فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «الله أكبر، إنها السَنَن، قلتم- والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ- إلى قوله: وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] رواه الترمذيّ وصححه.

وذلك هو الفرق بعينه بين النبيّ وغيره، فإنّ الأحداث التي يستغلّها أصحاب التفكير السياسيّ- وإن كانت حوادث طبيعية- يرى الأنبياء الكرام عليهم السلام- استغلالها على حساب الدين حراما، وأمرا يرادف الكفر، ولا أدري أنّ أحدا سوى محمّد صلى الله عليه وسلم يكون قد صدق في هذا الامتحان من غير الأنبياء، ومن مؤسّسي الجماعات وزعماء السياسة.



وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففي قوله تعالى: " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبة: ٣١]، وقد روى الإمام أحمد والترمذي عن عديّ بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلّم يقرأ هذه الآية اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.. " الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمون، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» فقلت: بلى قال: «فتلك عبادتهم». فالعبادة أنواع وأصناف، ولا يتم الإيمان إلّا بتوحيدها كلها لله سبحانه...][٩]...

فقد (مُطر الناس على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات ليلة، فلما أصبح رسول الله– صلى الله عليه وسلم – قال: (ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين، فأما من آمن بي وحمدني على سقياي؛ فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب، وأما الذي قال: مُطرنا بنوء كذا؛ فذلك الذي آمن بالكواكب وكفر بي– أو كفر نعمتي–). رواه أحمد وهو في الصحيحين بنحوه...

والنوء: هو النجم إذا سقط في المغرب مع الفجر، مع طلوع آخر يقابله في المشرق. وإنما غلَّظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الأنواء. لأن العرب كانت تنسب المطر إليها؛ وهو نوع من نسبة الفعل والتأثير للكواكب، وهو عبادة لها تنافي تكريم الله تعالى للبشرية.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليعكس ارتكاس مسار البشرية في وحل الوثنية والشرك وعبادة الناقص إلى عبادة الله وحده.. ولم يرتفع بنفسه يوما عن مهمته؛ بل يضحي بكل شئ في سبيلها ويضع من ذاته امام عظمة ما يدعو إليه من توحيد ربه سبحانه واتباع منهج السماء...

وفي هذا يقول المستشرق [إميل درمنجم]في كتابه حياة محمد عليه السلام ص ٣٦٠: «إن محمدا– صلّى الله عليه وسلم– الذى خلق للقيادة لم يطالب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلّغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين

---

[٩] نقلا عن تفسير القاسمى ٢٢٨/١، دار الكتب العلمية / بيروت





والناس أجمعين.. وكان ينهى من عدّه ملكا... ولقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته.. » ا. هـــ.

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم – إذن طالب جاهٍ أو مالٍ او سلطانٍ أو رجل مهووسٌ بالسلطة الروحية يبغي أن تقدَّسه الناس؛ بل دائما ما كان يرددها تشق أفق التاريخ " لَا تُطْرُونِي لا(أى لا تبالغوا في مدحي بالباطل) كَمَا أَطْرَتِ النصارى عيسى ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عبدٌ؛ فقولوا عبد الله ورسوله"[١٠].. وكان دائما يقول صلى الله عليه وسلم –" أنا محمد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله ". [١١]

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: صُرِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَرَسٍ بِالْمَدِينَةِ عَلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، فَانْفَكَّتْ قَدَمُهُ، فَكُنَّا نَعُودُهُ فِي مَشْرُبَةٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَتَيْنَاهُ، وَهُوَ يُصَلِّي قَاعِدًا، فَصَلَّيْنَا قِيَامًا، ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ قَاعِدًا، فَصَلَّيْنَا خَلْفَهُ قِيَامًا، فَأَوْمَأَ إِلَيْنَا أنِ اقْعُدُوا، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: "إِذَا صَلَّى الْإِمَامُ قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا، وَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَلَا تَقُومُوا وَالْإِمَامُ قَاعِدٌ، كَمَا تَفْعَلُ فَارِسُ بِعُظَمَائِهِمْ". [١٢]

هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يعرف ربه حق المعرفة ويعرف قدره ويعرِّف الناس قدر ربهم ويجعل كل همه توحيد الرب سبحانه كما يليق به....

١٠١٠ الألباني في مختصر الشمائل المحمدية للترمذي ١/١٧٥ من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. وهو عند البخاري في الصحيح.

١١ كما في السلسلة الصحيحة للألباني برقم ١٥٧٢ .

١٢ صحيح الأدب المفرد (ص: ٣٦٦)/ ٣٨٧- بَابُ مَنْ كَرِهَ أَنْ يَقْعُدَ وَيَقُومَ له الناس .





هذه حياة محمد صلى الله عليه وسلم.. وهذه دعوته

يقول الدكتور م. ج درّاني Dr. M. H. Durrani: «... وأخيرا أخذت أدرس حياة النبى محمد- صلّى الله عليه وسلم- فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذى أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة، التى لم تنجب رجلا عظيما واحدا يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفا من النفوس الكريمة التى انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد»[١٣].

ويقول أيضا: «... تحمل- صلّى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عاما كاملة من المتاعب في مكة دون انقطاع، وثمانى سنوات في المدينة دون توقف، فتحمل ذلك كله، فلم يتزحزح شعرة عن موقفه، وكان صامدا، رابط الجأش، صلبا في أهدافه وموقفه. عرضت عليه أمته أن تنصبه ملكا عليها وأن تضع عند قدميه كل ثروات البلاد إذا كف عن الدعوة إلى دينه ونشر رسالته. فرفض هذه الإغراءات كلها فاختار بدلا من ذلك أن يعانى من أجل دعوته. لماذا؟ لماذا لم يكترث أبدا للثروات والجاه والملك والمجد والراحة والدعة والرخاء؟ لابدّ أن يفكر المرء في ذلك بعمق شديد إذا أراد أن يصل إلى جواب عليه».

«هل بوسع المرء أن يتصور مثالا للتضحية بالنفس وحب الغير والرأفة بالآخرين أسمى من هذا المثال حيث نجد رجلا يقضى على سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم هؤلاء القوم أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك يقومون برميه بالحجارة والإساءة إليه ونفيه وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة حتى في منفاه، وأنه رغم كل ذلك يرفض أن يكف عن السعى لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن

---

١٣ رجال ونساء أسلموا، ٤/ ٢٧- ٢٨.



يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة السعى لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة مزيفة؟ هل يستطيع أى مدخول غير مخلص... أن يبدى هذا الثبات والتصميم على مبدئه والتمسك به حتى آخر رمق دون أدنى وجل أو تعثر أمام الأخطار وصنوف التعذيب التي يمكن تصورها وقد قامت عليه البلاد بأكملها وحملت السلاح ضده؟».

«إن هذه الإيمان وهذا السعى وهذا التصميم والعزم الذى قاد به محمد- صلّى الله عليه وسلم- حركته حتى النصر النهائى، إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته. إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شك أو اضطراب لما استطاع أبدا أن يصمد أمام العاصفة التي استمرّ أوارها أكثر من عشرين عاما كاملة، هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في الهدف واستقامة في الخلق وسموّ في النفس كل هذه العوامل تؤدى لا محالة إلى الاستنتاج الذى لا مفر منه وهو أن هذا الرجل هو رسول الله حقا. هذا هو نبينا محمد- صلّى الله عليه وسلم- إذ كان آية في صفاته النادرة ونموذجا كاملا للفضيلة والخير، ورمزا للصدق والإخلاص...

إن حياته وأفكاره وصدقه واستقامته، وتقواه وجوده، وعقيدته ومنجزاته، كل ذلك براهين فريدة على نبوته. فأى إنسان يدرس دون تحيّز حياته ورسالته سوف يشهد أنه حقا من عند الله، وأن القرآن الذى جاء به للناس هو كتاب الله حقا، وكل مفكر منصف جاد يبحث عن الحقيقة لابدّ أن يصل إلى هذا الحكم»]. [١٤]

١٤ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عيون غربية منصفة تأليف حسن حسيني معدى)ص: ١٢٣)

حياة محمد المثال الأعلى للإخلاص والصدق والنجاح

[فهذا محمد صلى الله عليه وسلم - الذي كان وعد وقال لأعداءه الكثيرين وهو في وحدته، إني سأصير في جماعات وعساكر فكان كما قال وأخبر، لأنه حين دعاهم أنكروا قوله وأكفروه وتلقوه بالردّ والتكذيب، ثم ما زال والنفر بعد النفر يجيبونه، حتى صار في عساكر، فاعتقدوا بصدقه ونبوته، وصاررا له جندا مطيعين، وحزبا متفقين، ينفقون أموالهم ويسفكون دماءهم في طاعته، ويفرّون من آبائهم ويقتلون أبناءهم ويفارقون أوطانهم لأجله وامتثالا لأوامره، وأزكى الأعمال عندهم ما أرضاه بلا دنيا بسطها فيهم، ولا أموال دفعها اليهم، ولا لرئاسة كانت له عليهم، بل كان يتيما فقيرا وحيدا معيلا محتاجا.

ثم جاءهم مجيئا ما جاء نبي قبله في مثل حاله، فإن موسى صلّى الله عليه وسلم أتى قومه من بني إسرائيل، وهم أولاد الأنبياء، قد اعتقدوا الربوبية وعرفوا الطريق اليها واعتقدوا النبوة وعرفوا الأنبياء قبل موسى، كآدم ونوح، ثم الى ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط، وألفوا عبادة/ الله، واعتقدوا المعاد وعرفوه. ثم جاءهم في ذل وأسر وقهر في أيدي الجبابرة من القبط والفراعنة، يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويمنعونهم الصنائع الشريفة والاحتراف، ويقصرونهم على ضرب اللبن وقطع الأحطاب والاعمال الشاقة المؤلمة، فجاءهم موسى بما يعتقدون من الربوبية والنبوة، ثم أخرجهم من الذلّ الى العزّ، ومن الشقاء الى الرفاهية والدعة، ومن الفقر الى الغنى.

ثم جاءهم من بعد موسى من الأنبياء بما جاءهم به موسى، الى أن انتهت النبوة الى المسيح عيسى بن مريم صلّى الله عليه وسلم، فأتى بني اسرائيل بسنن موسى، وشرائع التوراة.

فقدم هو والأنبياء قبله على أمر ممهد مألوف معروف، وعلى قوم قد ألفوا وعرفوا، وجاء محمد صلّى الله عليه وسلم قوما يعبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صلاة ولا صياما ولا زكاة، أشد الناس نخوة وتكبرا



وأنفة، قلاة جفاة، معاشهم من شن الغارات، يسفكون دماءهم ويئدون ذريتهم فرارا من العار.

ودعاهم صلّى الله عليه وسلم الى الربوبية، والى الاقرار بالنبوة والبعث والقيامة، وأخذهم بالصدق والوفاء وأداء الأمانة والخضوع للحق، وبالطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف والزكاة، وصلات الأرحام، وقطع السارق، وجلد القاذف ورجم الزاني وشارب الخمر، ومساواة الموالي والفقراء والأعاجم والضعفاء في الدماء، وأخذهم بالبراءة من آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، ومن آبائهم ومن أديانهم، وبالإقرار بضلالهم، والتدين بالبراءة منهم، وببذل دمائهم وأموالهم في طاعته، وبمجاهدة الأمم ومعاداة الجبابرة والملوك في طاعته ، فأخذهم بكل شدة، وأخرجهم من الراحة الى الكدّ ومن المسالمة الى العداوة، وألزمهم ما لم يكونوا ألفوا ولا عاهدوا، وألزمهم الكلف والمؤن، فأجابوه بهذه الشرائط، فكان مجيئه على الوجوه التي قدمنا ذكرها من آياته ودلائل نبوته صلى الله عليه، و لم نجعل طاعة أصحابه له وتصديق القوم له ومصيره في عساكر وجماعات من دلائل نبوته إلا لأنه..][١٥] – صلى الله عليه وسلم – كان النور والحياة التي لا يستطيع قلبٌ نقى وعقل راق إلا أن يستجيب له مذعنا مصدقا باذلا روحه وماله من أجله..

إن إخلاصه وصدقه صلى الله عليه وسلم المدهش في الدعوة إلى الله سبحانه قد أنار في الحياة بريق الإيمان، وأشعل بها جذوة الإخلاص واليقين الذي تمثل أروع ما تمثل في تلك النخبة المباركة التي افتتحت عهداً جديدا في تاريخ الدنيا.. تمثل في صحابته الكرام الذين عرفوا إخلاصه ويقينه وعظمته فأحبوه وضحوا بالنفس والنفيس من أجل نصرة دينه ونشر مبادئ ومعاني حياته الشريفة المباركة...

وإني لأذكر قصة سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – تعرض للفتنة من قِبل والدته الكافرة، فامتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود إلى دينها. قال ابن كثير: «قال

---

[١٥] إلى هنا انتهى الكلام من تثبيت دلائل النبوة (١/ ٨) للقاضي عبد الجبار بتصرف.



الطبراني في كتاب العشرة إن سعدًا قال: أنزلت فيّ هذه الآية: {وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا} [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلاً برًا بأمي فلما أسلمتُ قالت: يا سعد: ما هذا الدين الذين أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني لشيء، فَمَكَثت يومًا وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومين وليلتين أخريين، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلت: يا أُمَّه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت [١٦]. فمحنة سعد محنة عظيمة، وموقفه موقف فذ يدل على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنه لا يقبل فيه مساومة مهما كانت النتيجة.

وقد كان مصعب بن عمير – رضي الله عنه – أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال [أى أجودها]، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعب الحيس [أى أفضل الطعام]عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل ، ولما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرًّا، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي، فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى.

قال سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه –: لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شديدًا حتى لقد رأيت جلده يتحشّف، أي يتطاير، تحشف جلد الحية عنها، حتى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله مما به من الجهد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما ذكره

[١٦] تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

قال: «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»، ومع كل ما أصابه - رضي الله عنه - من بلاء ومحنة ووهن في الجسم والقوة، وجفاء من أقرب الناس إليه، لم يقصر عن شيء مما بلغه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد. [١٧].... . هكذا آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم – وضحوا في سبيل إيمانهم بمحمد ورسالته...

وإذا كان من عظمةٍ في حياة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقد استمدوها من إيمانهم بهذا الرجل العظيم الذي لولاه لم يكن لهم ذكر ولو حتى في هوامش التاريخ... أفلا تستحق – إذاً- سيرة وحياة هذا الرجل العظيم القراءة والتحليل والدرس والاقتداء؟.

[١٧] السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، للصلابي، دار المعرفة بيروت ٢٠٠٨ (ص: ١٥٦)

الإيمان الكامل بالنور.

- إنك تقرأ في حياة هذا الرجل (صلى الله عليه وسلم) الأمل والإيمان الكامل بالنور حتى عندما يسدف على الحياة الظلام العنيد.. إنك تقرأ في حياته الحياة بدل الموت؛ والنماء بدل الذبول، والغرس والبناء بدل الهدم والدمار..

تذكر لنا الأيام عظمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو صامد كالشمس في عز الظهيرة لا تسمح بظل حولها بله لحظة ظلامٍ يدافع عن الحق والنور ولو دونه دمه وحياته... يقول التاريخ بكل فخر... أنه[مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب، فقالوا: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه» فردّهم أبو طالب ردّا جميلا.

ومضى محمد يشتدّ في الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعوانا. وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولدا ويسلمهم محمدا، فأبى. ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها. ثم ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له: «يا أبا طالب، إن لك سنّا وشرفا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين». وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطلب نفسا بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه. ماذا تراه يصنع؟ بعث إلى محمد فقصّ عليه رسالة قريش، ثم قال له: «فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتا لا يدري بعدها ما اتجاهه. وفي الكلمة التي تفتر عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم: أهو يظلّ في الضلال يمدّ له فيه، فتطغى المجوسيّة على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخرف الأفن. أم هو يضيء أمامه نور الحقّ، تعلن فيه كلمة التوحيد،

وتحرر فيه العقول من رقّ العبودية والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى؟ وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومسلمه. وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافا لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعدّة والعدد. إذاً لم يبق له دون الحق الذي ينادي الناس باسمه نصير، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدّة. ليكن! إن الآخرة خير له من الأولى. فليؤد رسالته وليدع إلى ما أمره ربه. ولخير له أن يموت مؤمنا بالحق الذي أوحى إليه من أن يخذله أو يتردّد فيه. لذلك التفت إلى عمّه ممتلئ النفس بقوّة إرادته وقال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»][18].

هذا الإيمان الكامل بالنور والحق لم يعرفه التاريخ بمثل هذه العظمة إلا في محمد عليه السلام وليظل الإيمان العظيم حتى النهاية.. حتى نهاية الحياة... ولأن الحياة الحقة إنما هي في دين محمد صلى الله عليه وسلم فإن التاريخ يؤكد على عظمة هذا الدين ويتذكر معجباً مندهشا ًأن محمدا صلى الله عليه وسلم دائما ما كان يقول لأصحابه: " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة [نبتة صغيرة]، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ". وكان يقول:" ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة ". [19]

إن محمداً صلى الله عليه وسلم يعلِّم أتباعه الإسلام الحق.. أن يغرسوا الخير والحياة قبل كل شيء، وحتى عندما يكون انتهاء الحياة هو أقرب شيء..

فالأمر ليس هو تلك النظرة المادية التي تزن كل الأفعال والمواقف بميزان المنفعة.. وأى منفعةٍ لشتلة صغيرة والحياة على وشك الإنتهاء؟!

---

[18] حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمحمد حسين هيكل ، الهيئة العامة للكتاب مصر ، (ص: ١٠٣).

١٩ راجع (السلسلة الصحيحة للألباني الأحاديث أرقام ٩،٨،٧)





إن محمداً يعلّم الدنيا كلها زرع الحياة والنماء لأن في التعمير والإصلاح والزرع والبناء رضا الرب عن هذه الإنسانية التائهة، لكي تُثبت استحقاق تكريم الله عز وجل لها.. وتُنير العالم بوجودها.. وهذه أهم فلسفات الإسلام الراقية التي زرعها محمدٌ في قلوب أتباعه...

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُسَاوِرِ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُخْبِرُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ، وجارُه جَائِعٌ "[٢٠].. وهذا خلق آخر يرتقى برجال محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين عن الأنانية إلى الشرف والكرامة الإنسانية الحقة، لأن من كمال تكريم الرب في الإنسان شعوره بأخيه الإنسان ورحمته بخلق الله- حتى الذين على غير دينه..

هكذا يعلمهم محمد صلى الله عليه وسلم أن أول معاني الإيمان به وبرسالته هو جلب الأمن والإحساس بالأمان للناس جميعا.. لقد سمعه التاريخ وهو يكرر على مسامعه ومسامع الدنيا قولته الخالدة: " المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم"[٢١]..

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ وصائم النَّهَار»[٢٢]..

كل هذه النصوص المباركة وغيرها الكثير والكثير في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وكلماته وتعاليمه وأفعاله ومواقفه الخالدة هي مثلٌ حيٌ لمناهج مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الخاصة لصناعة الحياة ومد معانيها للاتصال بالرب العظيم في كل مناحيها.. تعلِّم أتباع محمد الذين اختارهم الله لحمل رايات النور للعالم أجمع أول معاني الرجولة والجمال.. إنها الأخلاق، وحسن الخلق- أولاً ودائما بعد معرفة الخالق واستمداد النور

---

٢٠)صحيح الأدب المفرد برقم ٥٢الألباني)

٢١)حديث صحيح انظر تحقيق كتاب الإيمان لابن تيمية للألباني ص٩٧).

٢٢رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وهو صحيح ،المشكاة ٥٠٨٢)





المباشر منه عز وجل.. وإنها لمن أهم معاني الدين الإسلامي ومبانيه، وهى الدعامة الأولى لحضارة الإسلام والتي فتّحت عيون العالم على الحق والخير والنور..



صناعة الحياة الحقيقية في ظلال حياته الشريفة عليه السلام...

ويا لعمق كلمات المهاتما غاندي القائد الروحي والسياسي الهندي الكبير إذ يقول: (لقد كانت البساطة الصارمة، وانكار الذات اللامتناهي، والوفاء الرائع بالعهود، والتضحية الشديدة من اجل الأصدقاء والأتباع، حزمه، شجاعته، ثقته المطلقة صلى الله عليه وسلم بربه تعالى وبرسالته.. كل هذا وليس السيف أبداً هو ما حمل النور للجميع وتخطى سائر العقبات في طريق دعوة الإسلام)...

هذه الأولى في مبادئ الإسلام.. وهذا هو الدرس الأول في حياة محمد صلى الله عليه وسلم؛ إنه الامل والإيمان الكامل بالنور والحياة.. إنه مد الحياة لتتصل بالربانية فتصير أكمل صور الحياة وأسعدها وأصفاها وأبعدها عن الظلام والظلم والمظلمين...

وحتى حينما يكون الموت ضرورة فهو من أجل الحياة، ومن أجل اكتمالها وصفاء نورها.. والتاريخ [المنصف]يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرفع سيفا قط إلا دفاعا عن النور في وجه الظلام أو دفاعا عن حاملي النور في وجه الظالمين المظلمين..

وإني لأذكر رجلا جميلا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هو ربعى ابن عامر – رضى الله عنه – حين جاء الفرس – إحدي قوتين هما الأكبر في العالم حينها- يدعوهم للإسلام قبل القتال، وهو نهج محمد صلى الله عليه وسلم في قتاله؛ فلم يكن يقاتل ليقيم إمبراطورية ولا كان يقاتل لأجل المتاع والدنيا، وإنما قاتل محمد وقاتل أتباعه بعده لنشر الحق والخير والحياة.. وحينما جاءهم ربعى – رضى الله عنه – وَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: *اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.* قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ... وحينما سأله رستم – قائد الفرس حينها- وقد رأى مفاوضته رضى الله عنه – فقال له رستم: قال أسيّدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز بعضهم عن بعض كما



يجيز أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم برؤساء قومه وقال: أرأيتم كلاما قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه. فقال: ويحكم إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة؛ والعرب تستخف اللّباس وتصون الأحساب.

ثم أرسل إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه – قائد المسلمين العظيم: أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن رضى الله عنه - ففعل كما فعل الأول [أى مثل ربعى [ولم يترل عن فرسه، وتكلم وأجاب مثل الأول... وبعث في الغد عن آخرٍ فجاءه المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه - فلمّا وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على أبهى أبهةٍ من مجلس رستم؛ فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه، فقال: لا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب لا نستعبد بعضا بعضا؛ فظننتكم كذلك، وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض؛ مع أني لم آتكم وإنما دعوتموني.. فقد علمت أنكم مغلوبون، ولم يقم ملك على هذه السيرة.

فقالت السفلة [أى العبيد والضعفاء]: صدق والله العربيّ، وقالت الأساطين[أى الكبراء]: لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا يترعون إليه [أى أن كلامه هيج في نفوس الضعفاء والعبيد نزعة الحرية واحترام الإنسانية الذي جاء به الإسلام، فتنبه].. ثم تكلم رستم فعظّم من شأن فارس وسلطاهم، وصغّر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة، وكنتم تقصدونا في الجدب فنردّكم بشيء من التمر والشعير، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد [أى لم يحرككم لحربنا إلا الفقر والطمع فيما عندنا]، ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلا وألف درهم، وكل رجل منكم حمل تمر، وتنصرفون؛ فلست أشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه - وخطب فقال: أما الّذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه؛ ولا ننكره، والدنيا دول، والشدة بعدها الرخاء.. ولو شكرتم الله الذي آتاكم لكان شكركم قليلا عما أوتيتم. وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى



تغير الحال. وإن الله بعث فينا رسولا، ثم ذكر مثل ما تقدّم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

فقال رستم: إذاً تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم. فاستشاط غضبا وحلف أن لا يقع الصلح أبدا حتى أقتلكم أجمعين. وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذّرهم عاقبة حربهم، فلجّوا. وبعث إليه سعد- رضى الله عنه - يعرض عليه الإسلام ويرغّب [أى لهم في الإسلام]، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالمطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم.) ا. ه. [٢٣]

هؤلاء هم خريجو مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم صنعهم على عينه – بإرشاد ربانى عظيم- ليكونوا النور والهدى للعالم التائه.. فهذا هو الإسلام، وغيره ليس بإسلام، وهو إذا حل في بيئة أحياها كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} سورة الأنفال الآية٧٤..

[وإني لأتساءل ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس، وما هي السعة التي فيها العرب؟!

لقد أجمع التاريخ والمؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم.. لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياة. أما العرب فكانوا يعيشون في شظفٍ وفقر، والمدنية لم تكن تعقدت أمامهم بعد؛ فأين هي السعة؟!

إن ربعى بن عامر كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دمىً قد كُسيت ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها وتأنق صانعوها في إظهار قسماتها وملامحها، ولكنها تماثيل من حجر أو جبس لا حياة فيها، ولا حراك بها!

وكان ربعي كبقية المسلمين- يتمتع بالحرية التي عرّفه الإسلام بها، فتنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خائفةٍ.. دنيا المعدّة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد، إلى دنيا

---

٢٣ البداية والنهاية ط الفكر (٧/ ٣٩- ٤٤)، وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٢٩- ٥٣١. بتصرف يسير.



القلب والروح والإيثار والمساواة والعدل والرحمة... وتلك هي السعة التي يتحدث عنها من تربى في مدرسة وحياة محمد صلى الله عليه وسلم][٢٤]

[إن النماذج التي خرجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفوا بأخلاق حميدة وقيم سامية، فرفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير وكذلك في الهند، وبخاري وسمرقند وغير ذلك من البلدان فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد ما عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة ـــ كما سنعرفه فيما بعد ـــ ولقد حرص المسلمون، على الوفاء بكل ما التزموا به و لم يكن هذا من حسن السياسة فقط فالوفاء بالعهد ليس تبرعاً من المسلمين يمنون به على الناس ولكنه مسئولية واجبة عليهم، قال تعالى]]وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا]]الإسراء، الآية: ٣٤].)[٢٥]

طبيعة هذه الأمة أنها الأمة الوحيدة التي كان من همها أن تعلم غيرها الحق والخير والاخلاق العالية دون ثمن ولا أجر، بل قد يدفع المعلمون المسلمون مالاً ويبذلون جهداً وعرقاً ووقتاً بل ونفساً حتى يعلموا غيرهم، هل من الأمم من يفعل ذلك غير أمة الإسلام؟ ألم تكن الشعوب تغير على الشعوب لتأخذ خيرها، وتنهب أرضها وتقتل

---

٢٤ كلمات ناصعة للشيخ العلامة أبي الحسن الندوي رحمه الله نقلا عن مقدمة محاضرة له نشرت في هدية مجلة الأزهر شهر ربيع الأول ١٤٣٠ه بتقديم الدكتور محمد رجب بيومي رحمه الله.

٢٥ نقلا عن الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار)٢/ ٥٨) للدكتور على محمد الصلابي.



أهلها؟ بينما كان المسلمون يضحون بأرواحهم؛ ليستنقذوا الناس من جحيم الكفر والضلال إلى جنة الإيمان والهدى. إن محمدا علّمهم التضحية – حتى النفس الأخير – من أجل أن يظل النور في الحياة ومن أجل نماء الحياة ذاتها.. علمهم أن الإيمان بالنور ومجاهدة الظلام هو أسمى صور الحياة...

[إن العرب قبل محمد صلى الله عليه وسلم والذين كانوا قبل دخولهم الإسلام قليلى الشأن، لا حول لهم ولا قوة، ولا يأبه بهم أحد ولا يحسب لهم حساب، هم في سنوات قليلة ينجحون في إزالة الإمبراطورية الفارسية كلها، وهى التى وقفت ندًا للإغريق والرومان نحو ألف سنة، وفى فتح الشام، و«مصر» وهما أعظم ولايات الدولة البيزنطية وأكثرها غنى في الشرق بعد إنزال هزائم قاسية بجيوشها في «اليرموك» وغيرها. وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين أنهم يربطون عادة بين الانتصارات والهزائم في الحروب، وبين أعداد الجيوش المتحاربة وما معها من عدة وأسلحة، ولما كان المسلمون أقل عددًا وعتادًا على نحو لا يقارن بما كان عند الفرس والروم، راحوا يبحثون عن أسباب أخرى غير قضية العدد والأسلحة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. ذهب بعضهم إلى القول بأن المسلمين واجهوا دولتى الفرس والروم، وهما في حالة ضعف وانهيار بعد الحروب الطويلة التى دامت بينهما، وانتصروا عليهما بسهولة وفى وقت قصير. غير أن هذا التفسير بعيد عن الواقع ومخالف للحقيقة، فالمعارك التى دارت في «القادسية» و«نهاوند» و«اليرموك» لا تؤيد هذا التعليل؛ لأنها كانت معارك كبيرة، ولم تكن جيوش الفرس والروم فيها ضعيفة، وهى لم تهزم أمام المسلمين لضعف قوتها المادية من الرجال والأسلحة، ولكن لأن معنويات أفرادها كانت منحطة إلى أبعد الحدود، في حين كانت معنويات المسلمين عالية، ويعرفون الهدف الذى يحاربون من أجله، وكان الموت أحب إليهم من الحياة. وهذا هو السبب الرئيسى في انتصاراتهم الذى نسيه الكتاب الغربيون أو تناسوه، فمنبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل في التاريخ أن العرب أصبحوا بفضل رسالة الإسلام وإتباعهم لمحمد صلى الله عليه وسلم أصحاب دين



ورسالة، فبعثوا بعثًا جديدًا، وخُلقوا من جديد، وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور،.. وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم الفتح، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله، واستهانوا بالقلة والكثرة، واستخفوا بالمخاوف والأخطار. وفى ذلك قال المؤرخون: «لما أقبل خالد بن الوليد من العراق، ليتولى قيادة الجيوش في الشام لحرب الروم، قال رجل من نصارى العرب أمامه: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فنهره خالد، وقال له: ويحك بل قل: ما أكثر المسلمين وأقل الروم إن الجيوش تكثر بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال».

وهذه الحقيقة عرفها أعداؤهم حتى إن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين وانتصاراهم، قال وكان عندئذٍ موجودًا في حمص: «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قبل لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام، وضيقوا عليكم جبال الروم».

لقد ترتب على الفتوحات الإسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى في تاريخ العالم، وإذا ما قورنت بغيرها – مثل فتوحات «الإسكندر» قبلها، وفتوحات المغول بعدها – فإن تلك المقارنة تظهر عظمة المسلمين، وأن فتوحاهم كانت أكثر الفتوحات في العالم خيرًا وبركة، ففتوحات «الإسكندر» وامبراطوريته التي شادها في الشرق الهارت وتمزقت أوصالها بعد وفاته مباشرة، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ، أما غزوات المغول التي لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلا من قبل في همجيتها ووحشيتها، فقد دمرت معظم العالم الإسلامي في الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة، ولم يوقف زحفها المدمر سوى الجيش المصري في معركة «عين جالوت» سنة [٦٥٨هـ]. وهذه الغزوات المغولية البربرية كان يمكن أن ينساها التاريخ أو يذكرها باعتبارها عملا بربريا ألم بالإنسانية في مسيرها الطويلة، لولا أن الله – تعالى – أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية وهداها إلى دينه، فأسلم أغلب المغول، وأظلهم الإسلام بحضارته، حولهم من



قوة مدمرة إلى طاقة خيرة، ومن أعداء مهاجمين إلى أتباع مدافعين، بل مشاركين في صنع الحضارة الإسلامية]ا. ه. [٢٦]

إذا كانت مسيرة الحياة لا تتوقف إلا أمام من يبعثون الحياة بحقيقتها الراقية؛ فإن مسيرة الإنسانية كلها توقفت أمام حياة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فعلى الرغم من قصرها إلا أن هذه الحياة السامية والسماوية قد بعثت أمة العرب من الرقاد، وأقامت نيران حضارتها من الرماد حتى فتحت الدنيا أعينها على نورٍ سماويٍ أزاح الله به ظلمة الرومان والفرس والوثنية والشرك، وحل مكانها الزرع والنماء والفكر والعطاء، وصدق الله العظيم إذ يقول " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [١٠٧]" [٢٧]

---

[٢٦] الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (١٠/ ٩٢٠، بترقيم الشاملة آليا) نقلا عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي.

[٢٧] راجع فصلا كاملا يأتي لاحقا بعنوان (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

الإيمان واليقين في الله تعالى.

قلنا: إنك تجد في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه أسمى وأرقى معاني الحياة والنماء والخضار والبناء والفتح والحضارة...

- ثم أقول: إنك تجد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان الشامخ بالحق والنور، واليقين الراسخ في انتصاره وانتشاره، والأمل في أغلى وأعز صوره..

ذلك الأمل الذي يتحدى اليأس، والإيجابية التي تُدين وتنبذ كل معاني السلبية.. والصبر الذي ينبهر أمامه التاريخ، وتتوقف أمامه الوصوف..

[إنه صلى الله عليه وسلم ظهر بمكة، فأكفر اليهود وبرىء منهم، والنصارى والروم وبرىء منهم، والفرس والمجوس وبرىء منهم، والهند وبرىء منهم، وقومه من قريش والعرب وبرىء منهم، وعاب آلهتهم، وأكفر اسلافهم، وضلل اديانهم، وفرق آلافهم، وقال لهم بحاله ومقاله وفعاله: الله أرسلني واصطفاني من العالمين، وجعلني حجة على كل من بلغته دعوتي من الاولين والآخرين، وجعلني خاتم النبيين وآخر المرسلين، وإن ديني يظهر على الأديان كلها، وإن كلمتي وكلمة اتباعي تعلو، وإنهم هم الغالبون القاهرون المالكون.

وهو إذ ذاك فقير وحيد، أجير معيل، قد أغضبهم وغاظهم بهذه الدعوة، وألبسهم الذل مع وحدته، وبالغ في إسخاطهم، فنهوه وزجروه، بعد أن عاتبوه وعذلوه؛ ثم توعدوه بالاستئصال والبوار، بعد أن كانوا رغَّبوه. فغلبهم على أمره، وقال: وكأني قد قلت لربي حين أرسلني: إني أن قلت هذا لقريش رضخوا رأسي، فقال لي: قل، وبلغهم، فسيغضبهم ذلك، وسيبعثون مكروههم عليك، وسيتحزبون ويجلبون في عداوتك، ويجمعون العساكر لحربك، فأعصمك منهم، وأبعث جنودا لك منهم ومن غيرهم، فتكون العقبى لك، فقال هذا وما هو أشد منه.

يعلم ذلك كل من سمع أخباره ممن صدقه أو كذّبه، وهو لا يعتصم بمخلوق، ولا يصوب ملكا من ملوك عصره، ولا يلوذ بأحد من البشر.

بل قد رماهم صلى الله عليه وسلم كلهم عن قوس واحدة بالعداوة، وأسخطهم أجمعين، وبعثهم بهذا الصنيع على عداوته. ثم ما رضي الله تعالى له أن يجعل ذلك قولا ثم صفحا، بل خلَّده ودوّنه، وجعله كتابا يقرأ، وقرآنا يتلى، يسمعه عدوه.. يقول محمد صلى الله عليه وسلم لهم: أوحى إلى سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا [٦٠]} [الإسراء: ٦٠]، وقال: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ « المائدة ٦٧» ».

فإنهم زادوا غيظا عليه، وصاروا هم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يدا واحدة في عداوته، وطلب نفسه، والحرص على قتله، وهم أشد الناس حقدا وأنفة وتكبرا وشرا، لا يتركون من عاب خيولهم وجمالهم فكيف بمن عاب آلهتهم وآباءهم وعقولهم وضلل أديانهم، فعصمه الله منهم وهو رجل فريد بينهم، وهو في مثوبة الموت، وخندق الخوف، وذل اليتم، ووحشة الوحدة، لا يعتصم منهم بمخلوق، فصرفهم الله عنه وهذه حاله، فلو لم يكن من آياته ودلائل نبوته إلا هذا لكفى وأغنى وزاد على الكفاية..][٢٨]

إنه الثبات، والإيمان الذي لا يتزعزع، واليقين الجازم في الله، والتوكل الكامل على الله، والقوة في الحق.. تلك الصفات التي جعلت محمدا صلى الله عليه وسلم واحدا من أفضل الأنبياء إن لم يكن أفضل البشرية كلها.. ولنتساءل:

- لأى غرضٍ شخصي أو نفعى قد يضع إنسانٌ عاقلٌ نفسه في كل تلك الحروب مع العالم؛ وخاصةً خفافيش الظلام فيه، وإذا ثبت أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عُرضت عليه الرياسة والمال والشهوات والملك فلم يثنيه ذلك عن حربه في سبيل إيمانه بالحق لحظة واحدة... إذا ثبت ذلك فهو الحق إذاً، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسوله لا مراء.

---

[٢٨] من كتاب تثبيت دلائل النبوة ، القاضى عبد الجبار المعتزلي، ج١ ص٥-٧ بتصرف .



- ومن كمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رجل يستطيع تحمل كل هذه العداوة والحقد والمكر، ولا يمد كفيه طالبا المعونة والمدد إلا من عند الله سبحانه، إذا لم يكن ما يؤمن به محمد فوق العالم وفوق مكر الناس أجمعين؟ وإن لم يكن رسولا نبيا مؤيدا صبورا قويا؟

إن محمداً – صلى الله عليه وسلم- لم يكد تمر عليه ساعةٌ دون تحدٍ ثقيل لإرادته وعزيمته وصبره.. ليخرج دائما منتصراً على اليأس والسلبية؛ معلناً بكل قوةٍ وجمالٍ أن الأمل في الخير والنور عنده بلا حدود..

إنى لأتخيله صلى الله عليه وسلم — وهو الجبل الذي لا تهده الأيام، ولا تزحزحه ريح الخطوب؛ يقف على أصحابه — وهم قلةٌ قليلون آنذاك يؤمنون به وبمصيرهم معه- يقف عليهم وهم يعذَّبون في الله تعالى أقسى أنواع العذاب لا لشيء إلا لأنهم حملوا النور الذي يخشاه خفافيش الظلام..

أتصوره وهو يسقيهم بكفه النبيل ترياق النور والأمل، ويذيب الشمس تحت أقدامهم بحرارة الصبر واليقين.. يقول لهم" صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة".. فعَنْ جَابِرِ بن عبد الله رضى الله عنه – «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ مَرَّ بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ: أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ أَوْ آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ"[٢٩]..

هكذا كان حياة محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه [البشرى[و[اليسر[وكان دائما ما يعلم اتباعه البشر والبشرى واليسر واليسرى.. فعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعرى رضى الله عنه

---

[٢٩] دلائل النبوة والحاكم في المستدرك. وجاء في سيرة بن هشام : وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما بلغني: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» . فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام.

وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم، فى رجال من قريش، إذا سمع بالرجل له شرف ومنعة قد أسلم أنبه وأخزاه فقال: تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ولنضعن شرفك. وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.)ا.ه.



- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» متفق عليه..



الصبر والبشرى

وحتى حينما يجتمع كل خفافيش الظلام يذبون بكل وسيلةٍ عن مملكة باطلهم وظلمهم وزورهم ويعذبون أهل الإيمان واليقين حتى يكلون من طول وشدة العذاب، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبث في قلوبهم الأمل ويسقي شجرة اليقين.. يستلهم بحياته وفعله قول الله عز وجل{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [٥]إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } [الشرح: ٥، ٦][٣٠]

يروي لنا البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت رضى الله عنه – وهو من المؤمنين الضعفاء المعذبين الذين كلُّوا تحت مختلف صنوف العذاب.. كان قد سبي في الجاهلية فاشترته [أم أنمار]، وكان حدادا وكان النبي يألفه قبل النبوة، فلما شرّفه الله بها أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحمّاة فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده إلا إيمانا..

يَقُولُ خباب: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً شَدِيدَةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟! فَقَعَدَ، وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُمَشَّطُ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»..

[ماذا عسى يفعل محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك البائسين؟! إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم، لأنّه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه، وقد كان في صلاته

---

٣٠ قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، إنّه لن يغلب عسر يسرين، إنّه لن يغلب عسر يسرين.

يرمى عليه- وهو ساجد- بكرش الجزور أو رحم الشاة المذبوحة، وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته، فلا يملك إلا الصبر.

إن محمدا صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على مغنمٍ عاجلٍ أو آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحقّ الذي حجبت عنه دهرا، مسح الران عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم، فربطهم بنسبهم العريق، وسببهم الوثيق، وكانوا قبلا- حيارى محسورين، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء، فاثروا الدار الاخرة على الدار الزائلة، وخيّرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجّهوا للذي فطر السموات والأرض.

حسب محمّد صلى الله عليه وسلم أن قدّم هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان، فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوما ما، ثم تنكشف عن شهداء وعن هلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبثّ عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام، وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفّرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم؛ كان الأسود بن المطّلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يتغامزون بهم، ويقولون:

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفّرون ويصفقون!!][٣١].

---

٣١ فقه السيرة للغزالي (ص: ١١٢)



ولكنها الثقة بظهور يعلمها القرآن محمدا صلى الله عليه وسلم ليبثها بشخصيته في قلوب أصحابه.. يقول له ربه تعالى " قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران١٢]..

وبهذا التوجيه النبوي الرباني للجماعة المؤمنة الأولى ظهرت قوية صامدة محتسبة..

وعليها وعلى أمثالها وجدت الأمة الإسلامية، وتحقق للإسلام والمسلمين الكرامة والحرية.



حقيقة الرضا وأسمى معانيه

يقول ابن الجوزي رحمه الله في كتابه الرائع صيد الخاطر:

من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل في أفعاله ومن أراد أن يدري من أين ينشأ الرضى فليفكر في أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإنه لما تكاملت معرفته صلى الله عليه وسلم بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك الملك. وللمالك التصرف في مملوكه.. ورآه سبحانه حكيماً عليماً لا يصنع شيئاً عبثاً.. فسلَّم تسليم مملوكٍ ضعيف للملك الحكيم..

فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير ولا من طبعه تأفف.

ولا يقول أبداً بلسان الحال: " لو كان كذا لكان كذا ".. بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الخلق وحده، والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفِرُّ من مكانٍ إلى مكانٍ..

واستتر صلى الله عليه وسلم في دار الخيزران وهم يضربونه إذا خرج، ويدمون عقبه الشريف.. وسلى الجزور (= أمعاء الإبل المذبوحة) على ظهره وهو ساكتٌ ساكنٌ لأمر ربه.

ويخرج صلى الله عليه وسلم كل موسم فيقول: من يؤويني من ينصرني.

ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافرٍ.. ولم يوجد من طبعه الشريف صلوات الله وسلامه عليه تأنف، ولا من الباطن اعتراض.

إذا لو كان غيره لقال: يا رب أنت مالك الخلق واقدر على النصر،فلم أُذَل؟.

وكما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق فلم نرضى الدنية في ديننا؟.

ولما قال هذا قال له رسول صلى الله عليه وسلم: إني عبد الله، ولن يضيعني..

فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما: الإيمان بملك الله وحكمته.

فقوله: إني عبد الله إقرار بالملك؛ وكأنه قال: أنا مملوك يفعل بي ما يشاء.
وقوله: لن يضيعني.. بيان حكمته؛ وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً.
ثم يُبتَلى صلى الله عليه وسلم بالجوع فيشد الحجر على بطنه.. ولله خزائن السموات والأرض.
وتُقتَل أصحابه، ويُشَج وجهه، وتكسر رباعيته (مقدمة أسنانه)، ويُمثَّل بعمه وهو ساكتٌ راضي.
ثم يُرزَق ابناً، ويُسلَب منه فيتصبَّر بالحسن والحسين فيُخبَر بما سيجري عليهما من قتل أمته لهما.. نفس أمته التي عاش لأجل هدايتها.

ويسكن بالطبع إلى عائشة رضي الله عنها فيُنغَّص عيشه بقذفها وهى المبرئة من السماء.
ويبالغ في الدعوة وإظهار المعجزات فيُقام في وجهه مسيلمة الكذاب والعنسي وابن صياد يدعون النبوة ويخطفون الناس للنار.
ويقيم ناموس الأمانة والصدق فيقال: كذاب ساحر.
ثم يصيبه المرض كما يصيب رجلين وهو ساكنٌ ساكت. فإن أخبر بحاله فليس للشكوى وإنما ليعلم أمته الصبر.
ثم يُشدَّد عليه الموت؛ فيُسلَب روحه الشريفة.. وهو مضطجع في كساء مُلبَّد وإزارٍ غليظ.. وليس عندهم زيت يوقد به المصباح تلك الليلة.
هذا آدم عليه السلام يُباح له الجنة كلها سوى شجرةٍ واحدة.. فلا يقع ذباب حرصه إلا على هذه الممنوعة لا يصبر عنها.

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول في المباح له :ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكبٍ استظل بظل شجرةٍ يوشك أن ينصرف ويتركها! .



وهذا نوحٌ عليه السلام يضج مما لاقى فيصيح من كمد وجده «لا تَذر على الأرض من الكافرين دياراً. »

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم اهد قدمي فإنهم لا يعلمون.

وهذا الكليم موسى صلى الله عليه وسلم يستغيث عند عبادة قومه العجل ويتوكأ على القدر قائلاً » :إن هي إِلاَّ فتنتك « ويوجه الله تعالى إليه ملك الموت فيقلع عينه.

وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول: إن صرفت الموت عن أحدٍ فاصرفه عني.

ونبينا صلى الله عليه وسلم يخيره الله تعالى بين البقاء والموت فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى.

وهذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول: "هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي "

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً.

هذا والله فعل رجلٍ عرف الوجود والموجد؛ فماتت أغراضه، وسكنت اعتراضاته، فصار هواه فيما يجري عليه من ربه سبحانه..

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.]ا. ه.





الإيجابية والعمل من الإيمان

إن الإيجابية وإرادة الخير للناس جميعا هي شعار رسالة محمد التي لا تزال رحمة للعالمين على مر العصور..

وإني لأتصور رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحفر الخندق ليحمى مدينته الفاضلة؛ الحصن الوحيد للدين الناشئ؛ يحميه من غدر الكثرة الكافرة الظالمة المظلمة آنذاك والتي تآمرت عليه بالآلاف لتدك مدينته وتنهي نوره للأبد..

أتصوره وهو يبشر أصحابه البررة المخلصين الذين يملأهم الجوع والفقر والبرد والتعب والجزع.. يبشرهم في هذا الموقف العصيب بفتح بلاد فارس والروم ومصر.. وهم كما قال أحدهم: لا يأمنون على أنفسهم يذهبون للخلاء [قضاء الحاجة]من تحفز عدوهم وإحاطته بهم!!!..

[قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ الْخَنْدَقِ، فغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرِيبٌ مِنِّي، فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيَّ، نَزَلَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ الْمِعْوَلِ بُرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى. قَالَ: قُلْتُ:

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ الْمِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ: أَوَ قَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ، حِينَ فُتِحَتْ هَذِهِ الْأَمْصَارُ فِي زَمَانِ عُمَرَ وَزَمَانِ عُثْمَانَ وَمَا بَعْدَهُ: افْتَتِحُوا مَا بدا لكم، فو الّذي نفس أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ][٣٢]

---

٣٢ سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٢١٩)





هكذا افتتح محمد صلى الله عليه وسلم قلوب وأرواح أصحابه بالأمل واليقين وعلمهم الصبر حتى كان لهم الفتح المبين بعد أقل من عقد بعد وفاته صلى الله عليه وسلم...

- هذا النبى العظيم الذي حوصر واتباعه وكل المتعاطفين معه حتى قبيلته في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات يقاسون القطيعة الجائرة والظلم والجوع والنبذ من الجميع.. ولكن ذلك لم يفتّ لحظةً في عزيمة أو صبر محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يهز إيمانه وأمله في النور، بل ازداد يقينه في موعود الله عز وجل.. أليس محمداً بموافقه وحياته وصبره معجزة الأمل في أحلك ظروف الظلام؟!



البشرية والواجب.. البطولة والشفقة

أتذكر مقالة للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي يقول فيها: إن العظيم عظيم في كل شئ حتى في آلامه وأحزانه....

وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم بشرا له من خصائص البشرية وفيه من نقائصها فقد زكاه الله تعالى ليجعله النموذج الذي يباهى به الملائكة والمثل الكمل لنور الله في أرضه..

وكل ذلك لا يمنعه من أن يكون بشرا يحزن ويفرح ويضحك ويغضب ولكن واجبه في إقامة دين الله تعالى، ورسالته في بناء أمة التوحيد وهدم معابد الشرك أكبر من كل شئ...

ولقد نتصور محمدا صلى الله عليه وسلم في أشد لحظات الوجد والكمد والحزن يقف جبلا صامدا ونورا ساطعا..

يذكر التاريخ حين مات ابنه إبراهيم عليه السلام، [فقد مرض إبراهيم بعدها مرضا خيف منه على حياته، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه. و لم يطل بالطفل المرض. فلما كان في الاحتضار وأخبر النبيّ بأمره، أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدّة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها. فوجد إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه وقلبه يجف ويده تضطرب وقد ملك الحزن عليه فؤاده، وبدت صورة الألم على قسمات وجهه.

وضعه في حجره وقال: «إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئا». ثم وجم وذرفت عيناه، والغلام يجود بنفسه، وأمه مارية وأختها تصيحان فلا ينهاهما رسول الله!. فلما استوى إبراهيم جثمانا لا حراك به ولا حياة فيه، وانطفأ بموته ذلك الأمل الذي تفتّحت له نفس النبيّ زمنا، زادت عينا محمد تهتانا وهو يقول: «يا إبراهيم لولا أنه أمر حقّ، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأوّلنا، لحزنا عليك أشد من هذا». وبعد أن وجم هنيهة قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه، فذكّروه بما نهى عنه؛ فقال: «ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وإنّ ما ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة. ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة» أو كما قال. ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته، ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف، وطلب إليهما أن تهوّنا عليهما قائلا: «إن له لمرضعا في الجنة»... فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوّى عليه بيده ورشّ الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: «إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي. وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه».

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فرأى المسلمون في ذلك معجزة وقالوا إنها انكسفت لموته.

وسمعهم النبي: أترى فرط حبه لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة، أو يسكت على الأقل عنها، أو يعذر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة؟ كلا! فمثل هذا الموقف إن لاقى بالذين يستغلّون في الناس جهالتهم، أو لاقى بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم!. لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

أيّة عظمةٍ أكبر من ألّا ينسى الرسول رسالته في أشدّ المواقف التي تملأ نفسه بالفجيعة والهول!. لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الإجلال والإعظام، و لم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عرفانهم بصدق رجل لا يرضى في أدق المواقف إلّا الصدق والحق][٣٣].

بل أية بطولة روحية تلك التي تجعل من محمدٍ عظيماً حتى في حزنه..

---

٣٣ حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم – حسين هيكل بإختصار وتصرف يسير)ص: ٢٩٠)





ذلك الحزن الغامر الهدَّام من أبٍ هو الحنان كله لطفلٍ جميلٍ في أحلى لحظات عمره يموت أمام عينيه فلا ينسيه ذلك رسالته العظيمة ب [التوحيد والصبر والشكر].. توحيد يلعن الخرافة واستعباد العقول، حتى لو ظن ظانٌّ أن فكرة كسوف الشمس لموت إبراهيم عليه السلام هي إعجاز يخدم الدعوة.. كلا؛ فإن أصل الدعوة وأساسها الأول هو توحيد الله ونبذ كل صور الشرك.. لذلك وقف الرسول عظيما كدأبه يعلم الناس التوحيد والصبر والرقة والرحمة في أرقى صورها التي لا تنافي مقام الصبر والرضا بالقضاء ثم هو يعلمهم اتقان كل شيئ ولو دفن عزيز بكل ما فيه من ألمٍ وكمد.. وإن المنصف ليقف خاشعا أمام هذا القول الحكيم الذي يدل على أن سيدنا محمدا نبي حقا، فلو لم يكن نبيا، وكان طالب ملك أو زعامة، أو شرف وجاه، أو مدعيا نبوة لاستغلّ اعتقاد الناس هذا، أو على الأقل يسكت.

ولم يزل الدجالون وأدعياء النبوة والمشعوذون، من لدن مسيلمة إلى يومنا هذا يستغلون سذاجة الناس وجهلهم في مثل هذا، بل ويحاولون ما استطاعوا التمويه على الناس والتلبيس عليهم، ولكنه النبي الذي لا ينطق عن الهوى!! وأي عظمة نفسية أعظم من ألا ينسى الرسول رسالته في أشد المواقف التي تملأ النفس غما وحزنا وربما تذهل الشخص عما هو حق.. إنها عظمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم.. وجمال العيش في ظلال حياة محمد عليه السلام.

[وإن شفقته الأبوية التى لا تتعارض مع الواجب، أولا يعارضها واجب من العدالة، والتسوية بين الناس لتبدو في شفقته، على ابن زينب، وهو يحتضر، فقد أرسلت إلى أبيها نبى هذه الأمة، ولكن الرجل الشفيق خشى من ضعف الشفقة أن يرى حفيده يحتضر، فأرسل إليها عليه الصلاة والسلام يقول لها:

«إن لله ما أخذ وما أعطي، وكل شيء عنده مسمي، فلنحتسب لنعتبر» ولكنها تصر على أن يحضر، وتقسم عليه، فقام إليها النبى، وقام معه من بحضرته من صحابته، فوضعه



عليه الصلاة والسلام في حجره، ونفسه تخرج، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فقال له سعد بن أبي وقاص:

«ما هذا يا رسول الله، قال الرسول: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء».

ولقد كانت الشفقة مع القيام بالواجب، تتجلى في موت ولده إبراهيم الذى وهبه الله تعالى على الكبر، ثم استرد الوديعة، فما رؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حزن الأبوة، كما رؤى في وفاة إبراهيم، إذ بكى من عبء ما أصيب به، كان ثقيلا، ولما رأى أسامة بن زيد محمدا صلى الله عليه وسلم يبكى صرخ، فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال له يا أسامة: «البكاء من الرحمن، والصراخ من الشيطان».

ولقد كان وهو يبكى يقول: «الموت حق. وإن القلب ليحزن، والعين لتدمع، وإنا لفراقك يا إبراهيم المحزونون» وفى هذا اليوم كسفت الشمس، فقال المحبون، إن الشمس كسفت لإبراهيم، ولكن نبى العقيدة الصحيحة البعيدة عن الأوهام، نسى حزنه، أو غلب واجبه على حزنه، كما هو شأنه دائما، فوقف خطيبا، وقال صلوات الله وسلامه عليه.

«إن الشمس والقمر ايتان من ايات الله لا تكسفان لموت أحد، ولا لحياة أحد».

وأم الناس، وصلى بهم صلاة الكسوف.

وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الشفيق الرفيق الودود المحب دائما، ولكن عاطفته الإنسانية لا تتغلب على واجبه، بل الواجب أولي، وأحرى بأن يؤثره على غيره.

وإن شفقته تعم، فتكون رحمة، لا تختص بالاحاد، بل أحيانا يغضب ولا يغضب إلا للحق، ولكن قلبه التقى الخالى من كل سوء بالناس، تغلب عليه الرحمة العامة دائما، فيقول في ضراعة لربه الرحيم:

«اللهم إنى بشر من البشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل دعوت عليه، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة، وصلاة وطهورا، وقربة تقربه إليك، يوم القيامة».

وإن مظاهر حياته كلها شفقة، فامرأة في عقلها شيء يقف معها في جانب من الطريق يستمع إلى حاجتها، ويلقى في قلبها الطمأنينة.

وجارية يضيع منها ثمن دقيق، فيدفعه لها، وتبكى خشية أن يضربها مالكوها، فيسير معها إليهم ليمنعهم من ضربها، وأحد السبطين يركب على ظهره، وهو ساجد، فيطيل السجود، حتى لا يزعجه، ويستمر مرتحلا ظهر جده الرؤف الرحيم، حتى يتركه.

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيخفف في صلاته، ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه، وهكذا.]. [٣٤]

وإذا كنت قد أطلت في تحليل هذا الموقف ومتعلقاته، فلأدلل على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان وعظمة رسالته التي تتجاذبها معاني الرحمة والمسؤلية والواجب في هداية الناس وتعليم أصحابه الخير والنبل والرقة والرجولة والصبر.

---

٣٤ خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم للمرحوم الشيخ أبي زهرة(١/ ١٩٥)



فلماذا إذاً ندرس حياة محمد صلى الله عليه وسلم؟

وبعد هذا الذي أصلناه فإن لدراسة حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – في مسيرة الحياة البشرية. وإذا كان العظماء والقادة دائمًا يحرصون على كتابة مذكراتهم وسيرهم الذاتية حتى يتلمس الناس في تلك السيرة مواطن الاقتداء والاستفادة، إذا كان الأمر كذلك فإن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي أولى السير بالدراسة، وتكمن أهمية دراسة السيرة النبوية في النقاط الأساسية الآتية:

١ – لأن سيرته صلى الله عليه وسلم تعد رسمًا لطريقه التي سلكها، وقد أمرنا الله تعالى باتباع هديه، فكان لا بد من توثيق وإثبات كل ما ينسب إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأن ذلك أصل من أصول الدين الذي جاء للهداية.

وكما أن سير الأنبياء والصالحين من أهم وسائل الهداية الربانية والتربية للبشرية الضالة وقد جاء القرآن بقوله تعالى[٣٥]: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: ١١١].. ولو أن سير الصالحين قدوة في هداية وتربية البشرية، فإنه من الأولى أن تكون سيرة النبى الأكمل خير معلم للبشرية كلها، لذا جاء الأمر الالهى باتخاذ محمد صلى الله عليه وسلم أسوة لكل زمان وعصر.

٢ – معرفة تفاصيل سيرته صلى الله عليه وسلم والإقتداء بها هي تتريل دقيق وشامل للإسلام على أرض الواقع في كل شئون الحياة، فإن سيرته هي تطبيقٌ عمليٌ لأحكام الإسلام وشريعته، وقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ

٣٥ وقال أيضا سبحانه : {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠]. وقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].وقال سبحانه : {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) } [الفاتحة: ٦، ٧] ثم فسرها بقوله: {...الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) } [النساء: ٦٩، ٧٠]



كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الأحزاب: ٢١]«ولما سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم قالت: {كان خلقه القرآن».

٣ - إن تقديم السيرة النبوية الموثقة بأسانيدها المتصلة إلى مصادرها الأصلية المتضافرة، والتي تبين كل ما يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم بجميع تفاصيلها سواء كان في شئونه الخاصة أو العامة، مهما بلغت تلك التفاصيل من خصوصية، وسرد الحوادث التاريخية التي صاحبت تلك الحقبة مع وجود الآثار المادية التي تؤكد البحوث العلمية صحتها ومطابقتها للمذكور في الحوادث التاريخية كل ذلك يدعم صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه مهما بلغ المرء من عظمة، فإن من العسير أن تتوافر له الظروف التي تمكن من متابعة جميع مسيرة حياته حتى من قبل ولادته إلى وفاته، فإذا تم ذلك لشخص، وتضافرت المصادر المتعددة على رصد وتسجيل مسيرة حياته، دون أن تختلف تلك المصادر على شيء ذي بال، إلا في أمور يسيرة تحتمل التأويل بيسر، دل ذلك على أن هذا ليس أمرًا طبيعيًا بل هو أمر خارق للمعتاد مما يؤكد رعاية الله له تصديقًا لنبوته.

٤ - معرفة عظمة الإسلام وقوته، عندما ندرك أن هذا الدين قد أرسى قواعده وأحكامه، وقلب موازين القوى السياسية والاجتماعية والثقافية لأجزاء كبيرة من الكرة الأرضية، ثم قدم نموذجًا حضاريًا قويًا ظل عطاؤه مستمرًا حتى يومنا هذا، وتظهر لنا هذه العظمة جلية إن علمنا أن هذا البناء الضخم قد تم تشييده في فترة وجيزة هي مدة حياته صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة التي لم تجاوز ثلاثا وعشرين سنة فقط.

وبعد؛ فهذا باب من أبواب كتابي الموسع في أصول السيرة (قراءة جديدة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم – محمد النور والحياة)

والحمد لله أولا وآخراً





الفهرس

